المتخيل ـ الإبداع(*)

إبراهيم نصرالله

ـ ١ ـ

الكلمةُ التي تحدُدُ معناها.. يحدُدُكَ معناها.. في حين أن مهمّة الكتابةِ الإبداعية تتمثلُ في خلقِ فضاءاتٍ جديدة للكلمةِ باستمرار، عبر امتلاكِ تلك القدرةِ السحريةِ التي تنجحُ في تحويلها إلى كيانٍ متجددٍ وإيصالها إلى آفاق متوالدةٍ.

وأعترفُ هنا أن بعضَ الكلماتِ قد أصبحت، في راهن الثقافةِ العربيةِ، كلماتٍ زلقةً مراوغةً لا بسبب تمتُّعها بهذه الميزةِ أصلاً.. بل بسببِ إصرارنا على وضعها في قفصِ التعريف. ولذلك فإنّ هذه الكلمات لا تتوقف عن التفلت طلباً لحريتها بعيداً عنا!

ـ ٢ ـ

لا يكتبُ الكاتبُ حقاً إلا عندما يحيا الكتابةَ.. ويربكه الجاهزُ المعرَّفُ باتقان، تماماً كما يربكُ الكاتبَ قيامُهُ بتأملِ ذاتهِ خلال الكتابة.. عبر تسخير جزءٍ من حواسّهِ لمراقبةِ الكيفية التي يكتبُ بها.

ـ ٣ ـ

والشهادةُ ناقصةٌ دائماً مهما بلغتْ لحظةُ التحليل من عمق، لا لشيءٍ إلاّ لأن الشهادةَ تأملٌ عقليٌ في الفعلِ الإبداعيّ، في حين أن العمل الإبداعي هو تلكَ اللحظة التي تتكثفُ فيها حواسُّ المبدعِ كلُّها في نقطةٍ واحدةٍ، تماماً كما تتكثفُ أشعةُ الشمسِ المتفرقةِ عبرَ المنشورِ الزجاجيِّ لتخرجَ من الجانبِ الآخرِ حزمةً قادرةً على إشعال النار.

ذلك أنّ لحظةَ الكتابةِ لا يدركها وصفُها الخارجي، لأنها الداخلُ في امتداداته السحيقة، الداخلُ الذي يمتلكُ خاصّيةَ ذلكَ التركيزِ الشديد الذي يمارسهُ فردٌ ما ويستطيعُ من خلاله تحريكَ الأشياء دونَ لمسها. ولو كان يمتلكُ القدرة على تحريكها دونَ هذا التركيز، لأحدَثَ عاصفةً هوجاءَ في كلِّ مكانٍ يمرُّ فيه...

ـ ٤ ـ

لا أنادي بضرورة ابتعاد الكاتب عن منصّة الشهادة، لأنّ لديه ما يمكن أن يقوله أحياناً، من خبرات تلامسُ حدودَ اليقين. لكنَّ الإبداعَ ذاتهُ لا يملكُ هذا اليقينَ، لأن يقينَهُ قائمٌ فيما لم يتحقق بعد.

ـ ٥ ـ

الفكرةُ التي نسيتُها تحررتْ
كلُّ الأفكارِ خارجَ الرأسِ حرةٌ!!

ـ ٦ ـ

لن أتحدث عن مفاهيمَ مطلقةٍ، بل سأحاولُ البحثَ عن أفقٍ مفتوحٍ لهذهِ الكلمةِ المُذْهلة «المتَخيّل». فأقولُ إنني أحس بأن المتخيّل كلُّ فضاء إبداعيٍّ يجدُ الإنسانُ والكائناتُ فيهِ رحابةً جديدةً لم تكن موجودةً قبلاً، تجعلهمْ يحسُّونَ رغم لامعقوليتها بأنها مساحةٌ حقيقيةٌ أُضيفَتْ إلى فضائهم المحدَّد باليومي، مساحة تستطيع اختراق المسلَّمات الجاهزة بحيث يصلُ تأثيرها إلى الجوهريِّ المشتركِ في أعمق أعماق الإنسان.

وأستطيع أن أقول إنّ هذا المدهشَ الثاقبَ لا يتأتى عبرَ معرفةٍ فقيرةٍ، بل عبرَ الذاتِ المبدعةِ المرتكزةِ إلى معرفةٍ شاملة. فالمتخيّل في تجلياتهِ، وإن كان يذهب لسَدِّ فراغاتٍ هائلةٍ في النفسِ البشريةِ، فإنه لا ينطلق من فراغ. وهو كالوعي في اعتقادي: قد يتسع وقد يضيق، أو لنقل قد يتسطّح أو يتعمّق. وهو في الذاتِ المبدعةِ وعي الكون المكثفِ في خبرة جمالية عاليةِ المستوى.

والمتخيّل هو كلُّ ما تستطيع المخيلةُ إنتاجه عبر الوعي أو اللاوعي أو كليهما، منطلقةً من المتطلباتِ الروحية والنفسية والتاريخية والمعرفية في زمن ما، متجاوزةً إيّاه إلى أزمنة قادمة. وإذا كان المتخيّلُ قديماً قد أخذ أشكالاً محددةً فليس بالضرورة أن يكون متخيلُنا اليوم على شاكلته.

المتخيل ليس واحداً؛ إنّه يتنوّع من قصيدة لأخرى، حتى لكأنَّ أشكالَهُ وطرقَ حلولهِ في العملِ الإبداعيّ تتنوّع كلما ولِدَ عملٌ فنيٌّ ذو فضاءٍ أصيل. بل إنه يتعددُ في العمل ذاتهِ، باختلافِ اللحظاتِ التي يعبِّرُ عنها ويجري عبرها، أو باختلاف المناطق التي يريدُ أن يبلغَها... كما يحدثُ في الروايةِ على سبيل المثال.

ـ ٧ ـ

هناكَ المتخيّل الذي يستحضرهُ الكاتبُ عبر اسطورةٍ معروفة، وهذا في رأيي استلهامٌ. أما المتخيّل الإبداعيُّ الحقيقي فهو محاولة خلقِ الأسطورة الخاصة، لأنه ببساطة الصورةُ التي لم نرها، لا تلك التي نعيدُ ترميمها، أو نعيدُ انتاجَها. ذلك أنّ إعادة الانتاج مهما بلغتْ درجةُ تفوّقها تحيلُنا دائماً إلى الصورة الأولى الحاضرة فينا. وأمّا المتخيل الإبداعي

(*) بحثٌ قدّم في ندوة «المتخيّل العربي في الأدب والفنون» ضمن مهرجان «الزيتونة» الدولي بالقلعة الكبرى/ تونس.

فهو المدهش الذي يطلُّ علينا في كتابةٍ جديدةٍ للمرةِ الأولى، بل هل أقولُ إنه الإبداعُ بحدِّ ذاتِهِ؟

ـ ٨ ـ

والشكلُ الفني ذروةٌ من ذرى المتخيل، يتعدد بتعددها ويتسعُ باتساعها. فليست هناك كتابة كبيرة خارجَ إبداعيةِ الشكلِ واللغةِ والجرأةِ على اللعب والتمرُّد على كل ما هو جاهز. فالشكل هندسة وبناء وفضاء لا توجد كتابةٌ خارجَهُ.

وهو ذلك التكنيك الداخلي أيضاً الذي تكسُر به حركةَ الزمان وصلابةَ المكان، للوصول بالقارئ أو المتلقي إلى ما تريد، مبدعاً زمنَكَ الخاصَّ الشارخ لكل زمن مألوف، ومبدعاً مكانك الخاصَّ الذي يحتل المكان حيثُ يتربع المتلقي كما لو أنه المكان الحقيقي الوحيد.

ـ ٩ ـ

لا شيء ما بيننا يكتمل
نحن لا ننتهي

ـ ١٠ ـ

لا أستطيعُ أن أنظر إلى المتخيّل إلا من خلالِ كتابةٍ ترى الإنسانَ بكاملِهِ، وبصفاته كلِّها. ذلك أنّ أيّة كتابةٍ زاهدة، مكتفية بجزء من هذا الإنسان، لا تستطيع أن تكون تلك الكتابةَ القادرةَ على بلوغ مجاهلِ روحه، بل إنها لن تنجحَ في أن تكونَ أكثرَ من كتابةٍ تحوّمُ حولَ نفسها في لغةٍ زائفةٍ مراوغةٍ تدّعي الحريةَ كطيورٍ مُحنَّطة.

ـ ١١ ـ

أحس بأن في الشِّعرِ طاقةً هائلةً لا يستطيعُ الشعرُ نَفْسُهُ استيعابها أحياناً. وأحس أن في الروايات مساحاتٍ لا يستطيع أن يملأها حتى الشعر نفسُهُ، حيث المساحة البيضاء أمامك مفتوحة لكل الاحتمالات.

ـ ١٢ ـ

لا يستطيع الكاتب أن يحققَ متخيَّلَهُ الخاصَّ به قبل أن يملكَ ذلكَ العِنادَ المجنون الذي يجعلُهُ يصرخُ: هكذا أفهم الرواية، أو هكذا أفهم القصيدة. ذلك أنّ تصورَهُ الخاصّ للإبداع هو الإبداعُ ذاتُهُ في تجاوزِهِ المستمرّ. فأنْ تتخيل يعني أن توغلَ في أبعادٍ بِكرٍ لم تُكشفْ بعد داخل القارة السابعة التي أسميها الإنسان، وحيث الحياة كلّها على وشك البدء.

ـ ١٣ ـ

طيبٌ. وحزينٌ كيوم أحد
واقفاً كان، حين هوى فَزِعاً
ورأى كلَّ ما فيه يُستلُّ يذبلُ أو يبتعد
شرِهاً في التفتّحِ أصبحَ
هامَ.. مضى..
فدعا شجرَ الغابِ ذئبَ الفلاةِ الطيورَ
القتيلَ وقاتِلَهُ
البحرَ من موجِهِ للزَّبدْ
وجمّعها في ظلالِ الضلوعِ
وغافَلها فَرِحاً ثم أقفلَ بابَ الجسدْ.

ـ ١٤ ـ

تدهشني تلك القابليةُ الرابضةُ فينا، المتحفِّزةُ للدخولِ سريعاً في دائرةِ المتخيل في السينما والأدب بوجه خاص، حيث نجدُ أنفسنا في لحظةٍ ما نستعدُّ، نُعدِّلُ جلستنا، كما لو أننا على وشكِ الإقلاع، شاهرينَ كل ما فينا من حواسَّ وغرائزَ ورغباتٍ دفينةٍ لاحتضان العالم.

ونجاحُ عمل أدبيٍّ على نطاق واسع يرجع في اعتقادي إلى قدرته على ملامسة الجوهر المشترك للبشر.

ـ ١٥ ـ

تقليدُكَ لعملٍ فني سابقٍ هو قَتْلٌ للمتخيل في مهدِهِ، وإصرارٌ أرعنُ على السيرِ في دربٍ واحدٍ أكثر من مرةٍ وأنتَ تدركُ أنكَ لن ترى من الأشياء إلاّ ما رأيتَ في المرة الأولى.

ـ ١٦ ـ

تصلُ السيرةُ الذاتيةُ في بضع تجلياتها إلى تلك الدرجة التي تدفعك إلى الاعتقاد بأن أحداثها أكثرُ سمواً من أن تكون قد حدثتْ فعلاً، وأن ما تطالعُهُ هو روايةٌ في الحقيقة.

ـ ١٧ ـ

ليسَ هناك ما هو نصفُ مُقنع يُمكنُ أن ندعوهُ متخيّلاً. فالمتخيّلُ في تجلياتِهِ يدفعك للتفكير، فتحاول أن تتذكر المكان الذي تجلس فيه بعد الانتهاء من القراءة.

ـ ١٨ ـ

إذا كانت لكلِّ كاتبٍ واقعيتُهُ الخاصةُ فإنّ لكلِّ كاتبٍ متخيّله الخاص..
متخيَّلُكَ في الحقيقةِ هو أنت،
في الكتابة..... وخارجها

ـ ١٩ ـ

تبدو الكتابة بالنسبة لي محاولةً للطيران عبر مجاهلِ الروح البشرية، وليس صدفةً أننا نفهمُها أكثرَ كلما توغلنا فيها... هذه الروح التي يُهيأُ لي أحياناً أن سعتها لا تختلفُ أبداً عن سعةِ الكون، حتى ونحنُ نسمع باكتشاف مجرة جديدة تبعد عن الأرض ١٢ مليار سنة ضوئية.

ـ ٢٠ ـ

النموذجُ الأكبرُ في تاريخنا هو **ألف ليلة وليلة** حيثُ عظمةُ المتخيّلِ قائمةٌ باستمرارٍ في تقاطعِهِ مع الحياة نفسِها. ويثبتُ لنا هذا الكتابُ، بعوالمِهِ الغنيةِ، أننا لم نزل نعملُ ونعيشُ في ضواحي أرواحنا لا أكثر.

وأكاد أقول إنّ تأثرنا بـ**الليالي** لم يكن على تلك الدرجة التي نتمناها، بقدر ما جاء التأثير عبر كتابةٍ وسيطةٍ تمثلُها إبداعاتٌ أوروبيةٌ وأمريكيةٌ لاتينية.. إلخ..، بحيث يبدو الأمرُ وكأنَّ **الليالي** مثلُ كلِّ خيراتنا العربية التي تُشتَلُّ أمامَ أعيننا ثم نجلس في انتظارها كمستهلكين!

ـ ٢١ ـ

بعضُ الأعمالِ العظيمةِ تجعلكَ تشكُّ أحياناً في أنها من تأليف فردٍ واحدٍ، ولكننا لم نكتبها بعد.

ـ ٢٢ ـ

ككاتب... لا أستطيعُ أن أكون منظِّراً لأنني لا أريدُ لأحدٍ أن يتبعَني، لا أريدُ حتى أن أصدِّق نفسي.

ـ ٢٣ ـ

وبعد:
هل كانت ستهزُّنا المفاجأة
لو لم نكنْ انتظرناها طويلاً؟

عمّان / تونس